المتلقي في مشروع إبراهيم البليهي

ألقيت الورقة في حفل تكريم المفكر الأستاذ إبراهيم البليهي بالقطيف بتاريخ ٣ جمادى الآخرة ١٤٤١هـ الموافق ٢٨ يناير ٢٠٢٠م

د. إبراهيم المطرودي

أستاذ مشارك في جامعة
الإمام محمد بن سعود

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وعليكم أيها الحضور الكرام، وبعد:

فقد سُررت كثيرًا أنْ وقع اختيار أبي عبد الرحمن عليّ حتّى أُقدم وُرَيقة، والتصغير للتمليح، في مشروعه الكبير المبارك إن شاء الله تعالى، وحسبي من مثله أن يُحسن الظن بي، ويراني جديرًا بهذه المواقف التي تنهض تكريمًا لأصحاب المشاريع الفكرية، وتسعى إلى تسليط ضوء خافت عليها؛ يكشف عن صداها في ذهن كاتبها أكثر من تَجْليته حقيقتها وواقع حالها.

أمران لا شك فيهما عندي؛ الأول: أن الأستاذ البليهي حريص شديد الحرص على يقظتنا ويقظة الإنسان. والثاني: أنه بذل جهدًا مشكورًا في سبيل تحقيق هذه الغاية المحمودة المنشودة، كان من ثمرته أن رأينا: بنية التخلف، وحصونه، ووأد مقومات الإبداع، وعبقرية الاهتمام التلقائي، والريادة والاستجابة، والإنسان كائن تلقائي، وغيرها من كتبه ومقالاته والدراسات التي نهضت على جهوده.

هذا المشروع الكبير لن يستطيع إنسان مثلي أن يُسلط الضوء عليه، ويتناول جوانبه الكثيرة بالدرس في فترة وجيزة، وتلك هي

قصتي مع تكريم الأستاذ البليهي ودراسة مشروعه؛ إذ كان الوقت عليّ ضيقًا جدًّا، فقد بُلّغت بالمشاركة قبل شهر واحد تقريبًا، شهرٍ كنتُ فيه مشغولاً بأعمال الاختبارات في الكلية، شهرٍ كانت تتخلله أيضا إجازة قصيرة، ينتظرني فيها أولادي أن أمسح عنهم عناء الدراسة والاختبار، ولستُ أقصد من وراء هذا أن أُقدم العذر لنفسي، وأُدافع به عن ورقتي، وإنما همي وسدمي أن تأخذ مثل هذه المشاريع الفكرية حقها من الدرس والنظر والتمحيص، ولا أقل من أن يُتاح لدارسها وفاحصها ستةُ أشهر، يقرأ فيها الباحث ما يستطيع منها، ويكتب حولها ما يُهدى إليه فيها، وتلك هي الغاية التي يروم المنتدى، والقائمون الكرام عليه، أن ينالوها ويفوزوا بها، وبهذا تأخذ المشاريع ما تستحق، ويجني المنتدى، وأهله الأحبة، ما يأملون.

هذه الحال دعتني أن أشغل ذهني وقتًا غير قليل في النافذة التي أتسلل منها إلى مشروع الأستاذ البليهي، والحقَّ أقول: لقد كنتُ حائرًا في السبيل الذي أسلكه في الدراسة، وأمضي فيه إليها حتى برقت في ذهني بارقة الأمل، وكثيرًا ما كانت الأفكار، كما يقول أبو حيان التوحيدي في إمتاعه ومؤانسته عن الفرص[(١)]، بروقًا تأتلق، ففرحت بها وأسرعت إلى تدوينها، فكان هذا العنوان: المتلقي في مشروع البليهي مدخلي في هذه القراءة القصيرة لهذا المشروع الممتد، ويصدق عليّ فيه ما قاله الشيخ جار الله الزمخشري:

العلمُ للرحمانِ جلّ جلالهُ   وسواهُ في جَهَلاتِـهِ يتغمغمُ
ما للترابِ وللعلوم وإنّما   يسعى ليعلمَ أنّهُ لا يعلمُ

وينبثق من فكرتي هذه وعنوانها الفرضُ العلمي الذي رأيت أن

(١) الإمتاع والمؤانسة، ١/ ٣٥ وبقية النص: «العمر قصير، والساعات طائرة، والحركات دائمة، والفرص بروق تأتلق».

أُطالع مشروع البليهي من خلاله.

الفرض الذي أذهب إليه هو أن هناك حقبتين مختلفتين في النظر إلى المتلقي والتعامل معه؛ الأولى: كان فيها الأستاذ البليهي ينطلق من أن المتلقي قادر مقتدر على تغيير نفسه ومن حوله، ومما يمثلها عندي خطابه في بنية التخلف، وفيها يبرز الأمل الكبير فيه، وإن كانت المجتمعات تقف حائلًا دونه، وتصدّه النشأة وظروفها، لقد كان البليهي في تلك الحقبة يأمل في القارئ، وينتظر منه أن ينتصر على عوائق بيئته ويجتاز حواجز محيطه، ومع الأمل يُولد الرفق، ويزداد بالناس حسن الظن. والثانية: يمثلها حديثه في التلقائية، وفيها يؤسس الأستاذ خطابه على أن المتلقي غير قادر على تغيير نفسه وتطوير من حوله، وأن التغيير، كما تقول العرب، دونه خرط قَتاد، وأن عليه أن يترك هذا السبيل للشذاذ المباركين، حسب عبارة أرنولد توينبي[1]، ويتأسّ بهم ويحذو حذوهم، أولئك المباركون الذين لن يكون لهم دور مُرتجى ما دامت السلطة لا تخدمهم ولا تقف إلى جانبهم، وبهذا أضحى الخطاب الفكري يحمل قنوطًا ويأسًا، وليس أقتل للمشاريع وأضيع لها من أن ييأس أصحابها في الناس بعدهم وتُرهن بسلطة منتظرة لا يدري صاحب المشروع توجهها واختيارها في ظل بيئة عامرة بمشاريع كثيرة تروج في الساحة وتبحث عن ناصرها ومنقذها، وفي هذا المعنى يقول البليهي: «وفي الغالب لا تُقبل الومضات الفكرية والعلمية الخارقة حتى تتبناها سلطة سياسية»[2]، وهذه العبارة «في الغالب» هي أخف عبارات الأستاذ، وله جمل أخرى أشد وضوحًا وأقطع دلالة على أنّ السلطة السياسة شرط من شروط حصول

(١) بحث في التأريخ، ترجمة طه باقر، ١/ ٣٨٧ يقول توينبي حسب الترجمة:» إذ ليس هناك من سبب يمنع أن يكون للطبيعة عدد محدود من هؤلاء الشاذين المباركين في جميع الأزمان والأمكنة».

(٢) الإنسان كائن تلقائي، ٢٥.

تأثير الأفكار الرائدة، وشرط من شروط أخذ الناس بها، وأنّها لولا تلك السلطة لما كان لها أن تفشو في الجماهير، وتقود الأمة إلى التقدم، وتنقذها من حال الغفلة والبؤس. إنّ الأستاذ البليهي ينزع من الأفكار الرائدة قدرتها على التأثير، ويُقنّط أصحابها منها، ويزرع في نفوس القراء شرطًا جديدًا للنهضة والتقدم، ليس لهم عليه سلطة، ولا لهم فيه قول ولا رأي، وحسبي بهذه الثلاث قنوطًا ويأسًا، ولو كنتُ مكان الأستاذ، وآمنت بهذا إيمانًا لا ريب فيه ولا شك، لأخفيته عن المتلقين، وسترته عنهم، ودفعتهم في دروب التغيير، وأحللت مكانه الأمل بالتغيير والأمنية به.

ويزداد الاتكاء على هذه الفكرة في «الريادة والاستجابة»، ويزداد يقين الأستاذ بها، فيجتمع على الإنسان أمران: الأول: أنّ حاله وحال مجتمعه لا تسمحان له بالتطور والتقدم، والثاني: أنّه لا يتطور، ولا يقبل مشاريع السبرمان حسب رأي أرنولد توينبي مرة أخرى[1]، إلا إذا وقفت سلطة سياسية معها، وآزرت الداعين إليها، وفي هذا يقول الأستاذ بعد ذكر مجموعة ممن غيّروا شعوبهم: «ولو كان أيٌّ منهم مفكرا دون سلطة؛ لما استطاع أن يحقق أيّ تغيير، بل ولا أي تأثير عام؛ حتى ولو بقي يدعو قومه ألف عام»، ويقول مرة أخرى بُعيد هذا بقليل: «إن التحولات العميقة لأحوال الشعوب وأوضاع الأمم؛ لا تحصل بالأفكار التنويرية إلا إذا تبنّتها قوة سياسية»[2].

(١) بحث في التأريخ، ١/ ٣٨٢ ووردت هذه المفردة في قوله: «إن هؤلاء الأفراد الذين يُسيّرون عملية النمو في المجتمعات التي يعودون إليها هم أكثر من بشر، فبوسعهم أن يقوموا بأعمال تتراءى للناس معجزات؛ لأن هؤلاء الأفراد أنفسهم هم فوق البشر (سبرمان) حقيقة لا مجازًا»، وهي على كل حال فكرة يأخذها توينبي من برغسون وينقل بعد ذلك قوله فيها.

(٢) الريادة والاستجابة، ١٤و١٥.

حسب السياسي ما يجري اليوم في معظم العالم، حسبه أن يترك للفكر حريته، وللقائلين فرصتهم، وليكن الجهد كله على صاحب الفكرة أن يُقنع بها السياسي ويُقرّبها إلى غيره؛ كما هي الحال في كثير من دول العالم. صحيح أن تبني السياسي لفكرة ما؛ يفرش الورد في طريقها، ويمُهد لها السبيل إلى أذهان الناس؛ لكن ما كل فكرة تضمن لنفسها سلامة المحتوى، ولا كل مشروع يحوز رضا السياسي، وإذا كان للإنسان العادي موانع تحول دون قبوله الأفكار المبتكرة والآراء النيرّة التي لم يكن لبيئته بها عهد؛ فإن السياسي يخضع مثله للموانع والحوائل، وليس من تشجيع سائر الناس على التفكير والتطوير وبذل الجهد في التعلم وإنتاج المعرفة أن تُرهن فائدة أفكارهم في السياسي ويُجعل سدًّا منيعًا دون آمالهم وبرزخًا عميقًا دون أمانيهم، وإذا كان في التأريخ الإنساني دعوات ما كان لها أن تسود وتذيع لولا هبّة السياسي معها؛ فإنّ في التأريخ أيضًا نماذج كُتب لها الانتشار والسيرورة دونه، وكان انتشارها في الناس واقتناعهم بها، أيًا كانت أسباب ذلك الاقتناع وعلله، سببه تشرّب البشر لها وإيمانهم بها، ومن ذلك فكرة اللاعنف التي بدأ الحديثَ فيها الأستاذ الروائي المفكر تولستوي (١٨٢٨م - ١٩١٠م) وأقنع بها أهل الهند غاندي (١٨٦٩ - ١٩٤٨م) وبها دافع عن الهنود في جنوب أفريقيا وقاد الهند مدة، ومن الغريب في قصته، حسب عبد النبي الشعلة[1]، أنْ « رفض رجال الدين الهندوس المتشددون والمتزمتون غاندي وحاربوا دعوته وقاوموا جهوده لاجتثاث ممارسة العزل والتفرقة ضد المنبوذين وحاولوا اغتياله» مع أنه كان حينها رجل

(١) غاندي وقضايا العرب والمسلمين، ١٩١ وعلى كل حال فكارين آرمسترونغ، وهي باحثة ومؤلفة بريطانية، تذكر في كتابها (التحول الكبير ترجمة محمد الجورا، ٥١٩) أنّ: «الطقوس الكونفوشيوسية «التسليم» كانت مصممة لتنمية عادة احترام الآخرين، فقبل أن يقوم المريد بتمرين يوغي واحد، كان عليه أن يصبح بارعًا في اللاعنف، وألّا يخون أبدا عدم كونه بطلًا بكلمة أوحركة... وفي سيرورة اكتساب عدم الإيذاء فإنه سوف يشعر بغبطة لا توصف؛ كما شرحت النصوص».

السياسة الأول في الهند.

ومما يُشبه هذه القصة، ويُساعد في إيضاح الفكرة؛ أنّ الأستاذ القصيبي ذكر في كتابه «التنمية... الأسئلة الكبرى» نقلاً عن أنديرا غاندي هذه الحكاية: «إن الناس أنفسهم هم الذين يجب أن يقرروا سرعة التغيير الذي يريدونه، ولا يمكن أن تتحدد السرعة بأمر من الحكومة؛ حتى عندما يكون الوعي عند الجماهير منخفضًا فليس هناك من وسيلة سوى الصبر والإقناع. حدث في الهند عندما بنت الحكومة سدًّا كبيرًا للتحكم في الفيضانات وتوليد الكهرباء أنْ ذهب بعض أفراد من المعارضة وأقنعوا أهل القرى المجاورة أن السد سلب المياه روحها، فغدت عديمة البركة، لا تصلح للزراعة. لم أُصدق أن أحدًا يمُكن أن يُصدّق خرافة كهذه؛ إلّا أنّني فُوجئتُ خلال جولاتي في المنطقة بعدد كبير من المواطنين يسألونني: لماذا سلبتم المياه روحها؟ ولماذا تركتم المياه بلا بركة؟ ماذا بوسع المرء أن يعمل؟ لا وسيلة سوى الصبر»، وعقّب القصيبي رحمه الله هذه الحكاية بقوله: «ولنا أن نتذكر أن أنديرا غاندي دفعت الثمن باهظًا عندما تناست مؤقتًا حكمتها وحاولت حثّ الرجال على قبول برنامج للتعقيم كجزء من حملتها لتنظيم النسل. كان هذا، حسب رأي القصيبي، أحد أهم أسباب سقوطها في الانتخابات»[1].

إنّ الشيء الذي يفتقده مشروع البليهي في رأيي ويحتاج إليه هو حسن الظن بالإنسان وعدم تقنيطه وتيئيسه، فهو المقصود بخطابه، والمراد من ورائه، ولا أرى من صالح أيّ فكرة جديدة، ولا مشروع نهضوي، أنْ يُرهن بالسياسي، ويُجعل شرطًا فيه، ولعل في سير بعض المفكرين ما ينصر هذا ويقويه، وهذا بعض ما وجدته عندهم، وأعانني الله تعالى على تدوينه.

---

(١) التنمية ... الأسئلة الكبرى، ٢٨.

الطفولة بيئة خصبة

من الجمل التي نُقلت عن البليهي وكثر في الناس ناقلها قوله: «إن الذهن يحتله الأسبق»، وأوضح ما يكون هذا الاحتلال إبّان الطفولة، التي مرّت بها البشرية كلها، حين لا يملك الإنسان معايير ينظر بها إلى الأمور، ويقيسها بها، وهو ما جعل الطفولة أخطر مراحل الحياة؛ إذ أن الإنسان فيها يكون مثل من يدخل غابة مليئة بالوحوش عاريًا من السلاح خاليًا منه، فما برأيكم سيكون حاله؟ إن ظروف الحياة التي تُحيط بالإنسان أيام طفولته، عادات أهله وأعرافهم ومبادئهم ومعارفهم، تُشبه الغابة في وجوه كثيرة، ولكنها على كل حال غابة عند غير المنتمين إليها والمؤمنين بما فيها، ومع هذا لم ييأس الحكماء من تغيير هذا الإنسان، ونقله من هذه الحال التي نشأ عليها إلى حالة يكون بها أحكم وأنصف وأعدل؛ بل لعلهم رأوا في حاله التي عاشها، وضعفه الذي حالَ دون اختياره، فرصةً ثمينة لهم؛ حتى يُنقذوا هذا المظلوم، ويسعوا في تقديم العون له، وذاكم هو الشيء الذي خالفوا فيه الأستاذ البليهي، وباينوه فيه.

إن الأمم كلها، التي تقدّمت حديثا أوقديما، مرّت بهذه المرحلة، وعرفت مخاطرها وأضرارها، وأيقنت أنها دوما تدفع ضريبة مرور الإنسان بهذه المرحلة الخطرة، ومع كل هذا ما زالت المجتمعات الإنسانية تعيشها، ولم تُفلح دعوة سقراط وتلميذه في التخلص منها، حين اقترحا أن تتولىّ الدولة تربية النشء، وما تبع ذلك من مقترحاهما التي ماتت معهما، وبقيت نشأة الأطفال في أحضان الآباء والأمهات، وبقي للحكماء المصلحين دورهم الذي ينتظرهم لإخراج الطفولة من حال الاستغلال إلى الاستقلال.

لقد أدرك المفكرون منذ القدم أنّ الطفولة هي أخطر مراحل الإنسان، وأنّ ما يُزرع فيها يبقى ولا يزول؛ فنصحوا الناس

وحذّروهم من أن يُلقى إلى أطفالهم ما يُضادّ ما يُرغب منهم في الشاب والرجولة، فقال سقراط في الجمهورية: «وأنت تعلم أيضًا أن البداية هي أهم جانب في كل عمل، ولا سيما إذا تعلّق الأمر بكائن صغير رقيق، إذ أن ذلك هو العهد الذي تتكون فيه الشخصية، وينطبع ما نودّ إحداثه فيه من التأثيرات... فهل ندع أطفالنا إذن يُعيرون أسماعهم لأية أقصوصة، يرويها أي شخص، وتتلقى أذهانهم آراء هي في الأغلب مضادة تماما لما نريدهم أن يكونوا عليه حين يشبون؟» ويقول فيها أيضًا: «ولا شك أن كل ما يتلقاه ذهنه في هذه السن ينطبع فيه بعمق، لا تمحوه الأيام، ولذا كان من أعظم الأمور أهمية أن تكون أولى القصص التي تطرق أسماع الأطفال أمثلة سامية للأفكار الفاضلة»[(١)].

ومع وضوح هذه القضية إلا أنني وجدت ديكارت يضع في الأمل في نفوس الناس حين قال: «ولما كانت المعرفة التي حصل عليها في السنوات الأولى من حياته، لا ترتكز إلا على قصور الحواس وسلطة المربين؛ فإنه يكاد يكون من المستحيل أن لا تمتلئ مخيلته بعدد لا حدّ له من الأفكار الخاطئة قبل أن يتمكن عقله من الأخذ بزمام الأمور، بحيث إنه يكون بعد ذلك في حاجة إلى ملكة طبعية قوية أو إلى تعليمات بعض الحكماء، سواء للتحرر من المذاهب الخاطئة التي كان منشغلاً بها أولوضع الأسس الأولى لعلم وطيد، واكتشاف جميع السبل الكفيلة بالسمو بمعرفته إلى أرقى درجة يمكنه بلوغها... فأكشف ما تحويه نفوسنا من كنوز حقيقية، فاتحًا بذلك لكل إنسان السبل إلى أن يجد في نفسه ودون استعارة من غيره كل العلم الذي هو في حاجة إليه؛ لتدبير حياته»[(٢)]، يحمل هذا النص فألاً إلى قارئه، ويجعله قادرًا

(١) الجمهورية، ترجمة أحمد فياض، ١٣٢ و١٣٤.

(٢) البحث عن الحقيقة بالنور الطبيعي، ترجمة سفيان سعد الله، ١٣١ و١٣٢.

على تجاوز عقبة الميلاد وتسلط المربين، ولسنا اليوم إلى شيء أحوج منا إلى الفأل في التغيير وتبديل الحال، ولو أنّ الحكماء، كالأستاذ ديكارت، يئسوا من الإنسان الذي يُحشى ذهنه قبل تمييزه، واستصعبوا نُقلته من حال إلى حال؛ لما كان للبشرية أن تخرج مما كان يتلقّاه الإنسان في سجن طفولته وكهفها، وإذا كان الشيء بالشيء يُذكّر؛ فلستُ أستبعد أن تكون محاورة «أسطورة الكهف» في جمهورية أفلاطون منصبّة على حال طفولة الإنسان الحقيقية، فالطفولة كهف مظلم حقًّا، وليست شيئا متخيّلًا، أراد سقراط وتلميذه أن يُشرحا به واقع الإنسان نفسه، إنه حال الإنسان في طفولته، ولسنا بحاجة أن نذهب بعيدًا في تفسير المحاورة، ومَنْ منكم، أيها الحفل الكريم، لا يرى الطفولة كهفًا من أخطر كهوف العالم الطبيعية؟!

ومثل قول ديكارت أقوال كثيرة لجون لوك، تنشر الفأل، وتزيد من حماسة المرء على التغيير، ففي جواب عن هذا السؤال: لماذا لا يحقق بعض ذوي الدراسة والفكر، الذين تكون عقولهم صائبة، تقدمًا كبيرًا في مجال الفكر؟ قال: «السبب في ذلك أنهم يتعاملون مع نوع واحد فقط من الناس، ويقرؤون نوعًا واحدًا من الكتب، ولا يستمعون إلا لنوع واحد فقط من الأفكار».

ويقول: «إننا نولد بملكات وقوى قادرة تقريبًا على أي شيء من النوع الذي يُمكنه أن ينقلنا أبعد مما يمكننا أن نتصور؛ لكن ممارسة هذه القدرات وحدها هي التي تعطينا الإمكانية والمهارة»؛ إنه خطاب للإنسان وجنسه؛ فكل إنسان عليه قادر، ولو كان جون لوك، وغيره كثير من الحكماء، يائسا من استجابة الإنسان الذي عاش في كهف الطفولة، وأسرته بما فيها من أفكار وأعراف وتقاليد؛ لما قضى سحابة يومه في التأليف، ودغدغ

الناس الأمل وهم يقرؤون كتبه ورسائله.

وأختم بهذا القول منه: «إن ملكات أنفسنا تتحسن وتصبح مفيدة لنا بالطريقة نفسها تمامًا التي تصبح بها أجسامنا كذلك... إن الطبيعة تهبنا البذور فقط، أي: نُخلق لنكون عاقلين نفكر إن شئنا؛ لكن استخدام العقل وحده، وممارسة التفكير وحدها هي التي تجعلنا كذلك، فنحن في الحقيقة لا نصبح هكذا إلا بفضل الدأب والممارسة»(١).

إنّ الإنسان يُولد محاطًا بسور عظيم من الموانع والتحديات، ويُنتظر من المفكر في ظني أن يهدم هذا السور، ويفكك هذه العقد، ويستنصر بالإنسان نفسه حتى يُعينه على ذلك، ويُشاركه في إنقاذ نفسه.

هذا ما أحببت عرضه، والمشاركة فيه، ولعلي أصبت في ما قلت، ولم أجنح عن الجادة كثيرًا، والشكر للمنظمين وافر، ولكم أيها الحضور الكرام، وأما أبو عبد الرحمن البليهي فهو الحكم، وعنده فصل القول، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(١) الأعمال الفلسفية الكاملة، ترجمة عبد الكريم ناصيف، ٣٢ و٣٥ و٤٠ و٤١.

منتدى الثلاثاء الثقافي
Thulatha Cultural Forum

منتدى الثلاثاء الثقافي

Thulatha Cultural Forum